مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الثالث
المجلد (٢) العدد (١)
٢٠٢١ (٢٦٨-٢٨٥)

مجلة أنساق

Middle East Institution of scientific Publishing

ملامح الحجاج الجاحظ بين الكلام والصمت
(البيان والتبيين أنموذجاً)

إيمان محمد خليل قاسمية

طالبة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

*الجامعة الهاشمية، **الأردن***

الإيميل:** **emanmhammad@ymail.com

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٠٢١/٤/١٩

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

المُلخص

تروم هذه الدراسة، إلى استجلاء حجاجيّة الجاحظ، في نماذج مُنتخبة، لثنائيّة الصمت والكلام وتضادّهما، وتقوم كذلك بتكشُفِ غاية هذا التضاد، الذي أظهر ديناميكيّة التفاعل بين المُتكلم والمُتلقي، وذلك بالوقوف على معمار النص الحجاجيّ بآلياته ومرجعياته، التي اتخذها الجاحظ مساراً إقناعيًا في تحفيز القارئ وسلب لُبابِ مُتلقيه. وقد اشتملت الدراسة تبعًا لذلك،على جانبين أساسيين،هما جانبٌ نظريّ يبرز ماهية الحِجاج وأطرافِ العمليّة التواصليّة، وجانب تطبيقيّ إجرائيّ يهتم بالوظيفة الإقناعيّة، التي تنطوي عليها خطابات الجاحظ بالكشف عن بعض السمات الحجاجيّة فيها. واستطاعت هذه الدراسة أن تستنطق مقصديّة الجاحظ في حجاجه التضاديّ بين ثنائية الصمت والكلام وكثرته، وذاك الحجاج الذي ينماز بطابعٍ توجيهيّ.

الكلمات المفتاحية: الحِجاج، الإقناعيّة، السُلم الحجاجيّ

Abstract

This study aims to elucidate al-Jahiz argument, in selected models, of the duality of silence and speech and their contradiction, and it also exposes the purpose of this contradiction, which showed the dynamism of the interaction between the speaker and the recipient, by Standing on the architecture of the Argumentation text with its mechanisms and references, which al-Jahiz took to motivate the path of persuasion And the door of his recipients was taken away. The study, accordingly, included two basic aspects, which are a theoretical aspect that highlights the identity of the

Argumentation theory and the parties to the communicative process, and an applied-procedural aspect concerned with the persuasive function, which al-Jahiz speeches involve by revealing some of the arguments features in them. This study was able to interrogate the intention of Al-Jahiz in his oppositional arguments between silence and speech and its abundance, and that of the Argumentation theory, who have a directive character.

Keywords: Argumentation theory, persuasiveness, Ladder persuasion theory

*** الجانب النظريّ**

لما كان الإقناع والتدليل يحتلان مكانًا عليّا في أعطاف الخطاب الاجتماعيّ والإنسانيّ، كانت أفلاك العلوم الإنسانيّة تتوغل في إطارٍ إقناعيّ وإفهاميّ، فاقتحم الحجاج، أي الغاية الإفهاميّةعلى مجالات ومعارف عدة منها: العلميّة، والمنطقيّة، والفلسفيّة، واللغويّة...

وقد نهل الحجاج من منابع كثيرة أهمّها خطابة أرسطو، فكانت البلاغة الأرسطيّة له هي المُرشد الأمين، إذ تنسب بدايات البحث فيه إلى أرسطو، تلك المحاولات التي كانت تتحرى الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في مواضيع شاسعة، عمادها الخطابة[1].

وقد اهتّم الجاحظ باستراتيجيات الخطاب، تلك التي تتعلق بأطراف العمليّة التواصليّة، في أبعادٍ ثلاثة حددها بالإيتوس، والباتوس، واللوغوس[2]، والتي تتمثل بالخطيب(المرسل)، والجمهور(المتلقي)، والخطاب(الرسالة).

وكون الحجاج ممارسة قوليّة أو خطابيّة، فهي بذلك تتأسس على أركان تضمن التفاعل التأثيريّ، فكلّ خطاب يحمل في كنهه غاية إقناعيّة،وفي محمول المُرسل اتجاه تأثيريّ نحو متلقٍّ يبسطُ القبول والتأثير بتكامل أطرافه.

وتُنسب بدايات البحث في الحجاج عادة إلى أرسطو،وعلى الرغم من ذلك فقد كان للسفسطائيين دور مهم في بلورته[3]، ذلك أن الحجاج عندهم لا يُحقق أهداف الحِجاج عند أرسطو والفلاسفة، فالحجاج عند أرسطو وأفلاطون وسيلة تفكير تساعد على معرفة الحقيقة والخبر، أما السفسطائيون، فشبهّوا الخطابة ببعض رياضات المُصارعة، عند الإغريق، وهي تهدف عندهم إلى الغلبة والفوز[4]. فكان الحجاج عندهم في موضع السيطرة، باستعمال سلطة القول لتحقيق نجاحات، ويكون ذلك بطرق مُلتوية ومغالطة،بتضليل الخصم ثم هزيمته. وأما عند الفلاسفة، فيقوم الخطاب على تقنية

[1]أرسطوطاليس، الخطابة، تحقيق: عبدالرحمن بدوي،د.ط دار القلم، بيروت،1979م،ص29.

[2]مليكة غبار أحمد امزيل،الحجاج في درس الفلسفة،د.ط، أفريقيا الشرق،المغرب،2006م،ص123.

[3]بلانتان، كريستان، الحجاج، ترجمة: عبدالقادر المهيري،ط1،المركز الوطنيّ للترجمة،تونس، 2008م،ص7.

[4]سلمان علي محمد، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذجًا)،ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع،عمّان، 2010م،ص14-34.

حجاجية مستقيمة وكاشفة عن الحق والحقيقة، دون تزييف في القول أو تقليب للحقائق.

كون الحجاج منتميًا إلى البلاغة الكلاسيكيّة الحديثة (أرسطومن جهة وميشال مايير من جهة أخرى)،حتى لا يمكن أن نُغفل،أيضًا،محاولات (بيرلمان وتيتكاه) في تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال، الذي يجعل المخاطب به في خضوع واستلاب،إذ الحجاج عندهما حرية، وحوار من أجل الحصول على وفاق بين الأطراف المتحاورة[5]، وهوقائم على تراتبيّة هرميّة، فهو لا يتصف بيقينٍ لازب. وإنما يُقصد منه إلى إحداث تغيير في الموقف الفكريّ والعاطفيّ لدى المتلقي[6]. ويسلك الحجاج مسلكًا تداوليًا بامتياز، فيُعرف بأنه ذو فعاليّة تداوليّة، فطابعه الفكريّ مقاميّ واجتماعيّ، ويأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخباريّة وتوجهات ظرفيّة، بإنشاء معرفة علميّة إنشاء موجهًا بقدر الحاجة[7].

*** الحجاج لغة واصطلاحًا**

إذا ما تتبُّعنا كلمة الحُجة نجد أن الكُتب اللغويّة والأدبيّة، لم تخلُ من تعريفاتها، توضح صريح لفظها، وقد تعددت التعريفات واختلفت، فنجدها في تعريف الأزهري (321هـ) يُحدّدها بالغلبة، إذ يقول إنّها"الْوَجْه الَّذِي يكون بِهِ الظفر عِنْد الْخُصُومَة"، ولم يخرج ابن فارس (395هـ) في معجمه مقاييس اللغة عما ذكره الأزهري بقوله: "حاججت فلانًا، فحججت أي: غلبه بالحجة"[8]، وهذا ما قرّره الزمخشريّ في أساس معجمه[9]، تأييدًا واتفاقًا على غائية الغلبة.

أما ابن منظور (711هـ) فقد ذكر أن الحُجَّة هي ما دُوفِعَ به الخصم، وأضاف على ذلك أن الحُجَّةُ هي الدَّلِيلُ وَالْبُرْهَانُ، حتى جعل من الحجاج مرادفًا للجدل، بقوله:"رجل محجاج أي جدل[10]"، فضلًا عن ذلك، فالجدل عنده قد حدّه بمقابلة الحجة بالحجة[11]. ونجد أن الفيروز آبادي(817هـ) قد شارك ابن منظور في معنى الحجاج على أنه جدلٌ، بل وأضاف إليه مفهوم كثرة الاختلاف والتردد[12]، في عملية الحجاج الإخباريّة.

نلحظ أنّ المعنى اللغويّ، لفعل الحجاج يدل على المنازعة والمغالبة، من أجل تحقيق النصر والمفازة، زِد على ذلك كونه يتضمن مفهومًا مشتركًا في بيان المعنى وتحقيق الغاية وهو الجدل، دلالة قصديّة.

---

[5]صمود، حمادي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم،ص298.

[6]هنري، بليث، البلاغة والأسلوبيّة نحو نموذج سيميائيّ لتحليل النص، ترجمة: حمد العمري،ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1989م،ص64.

[7]طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.ط،المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب،،1998م، ص226.

[8]أحمد بن فارس، مقاييس اللغة،ج2، تحقيق: عبد السلام هارون،د.ط، دار الفكر، بيروت،1979م،ص29-30.

[9]الزمخشريّ، أبو القاسم، أساس البلاغة،تحقيق: محمد باسل عيون السود،ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1998م،ص74.

[10]ابن منظور، محمد بن مكرم،لسان العرب،ج2،ط3، دار صادر، بيروت،د.ت، ص779.

[11]المرجع السابق،ج2، ص27-28.

[12]الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، قاموس المحيط،ج1، تحقيق: زكريا جابر أحمد،ط1، دار الحديث، القاهرة،،2008م،ص183.

أما المصادر الاصطلاحيّة فقد عجّت بتناول مفهوم الحِجاج على أنه مطلب تأثيريّ، فبيّن الجرجاني (816هـ) الحُجة في (التعريفات) بأنها ما دل بها على صحة الدعوى[13]،من حيث إفادتها للبيان، فأطلق عليهاالكفويّ بَيِّنَة، وَمن حَيْثُ الْغَلَبَة بِهِا على الْخصم سماها حجَّة، وأعلن وظيفتها الإقناعيّة بقوله إنها تفيد القانعين القاصرين عَن تَحْصِيل المطالب بالبراهين القطعيّة العَقْلِيَّة، وَرُبمَا تُفْضي إِلى اليَقِين بالاستكثار[14]. إلا أنّني لا أتفق مع الكفويّ في الجزء الثاني من تعريفه، في كون الحجاج قد يفضي إلى اليقين حين إدلائه، بل لا يمكن أن تصل درجة الحجاج إلى نتائج يقينيّة، وبوصف أدق يمكن أن تصل إلى تأكيدات متأرجحة بين الصواب والأصوب.

ويقول (صولة) تأكيدا لما سبق، إن الحجاج لا يكون فيما هو يقينيّ أو إلزاميّ، فالحجاج لا يتم من خلال حقائق يقينيّة راسخة، لأنه عرض للرأي مع حجة، من أجل الاقتناع، ويشير،أيضًا، إلى محّل الخلاف في معنى الحجاج، في كون الجدل هو مخاصمة أكثر شدة، ويكون في الباطل كما يكون في الحق، أما الحجاج فيظهر أو يكون في مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة، لغاية التأثير العقليّ المجرّد وتمثله في التراث العربيّ[15]. حتى أنه عدّ موقع الحجاج أقرب إلى الخطابة منه إلى الجدل[16]، فقال: "إن الحجاج أوسع من الجدل، فكل جدل حجاج،وليس كل حجاج جدل"[17].

نتبيّن مما سقناه من رؤى وآراء،عن معنى الحجاج، لدى اللغويين القدماء والمُحدثين عربًاوعجمًا،أن الحجاج حظي بالرعاية والاهتمام من قبل اللغويين، فراح هؤلاء يحددون مراده اللغويّ والاصطلاحيّ، فمنهم من جعله قاسمًا مشتركًا بين الخطابة والجدل، ومنهم من عدّ الحجاج مرادفًا للجدل، والجلّي أن أغلب المفاهيم تتفق على مفهوم الغلبة، التي جعلوا منها غاية الحجاجِ ومراده.

*** الحجاج عند الجاحظ**

لا يمكننا أن نغفل في موضوعنا هذا عن التعريف بأبرز المنظرين للمعنى الحجاجيّ عند العرب القدماء، وهو الجاحظ، الذي ظهر المعنى الحجاجي عنده جليًّا في أطياف كتابه (البيان والتبيين) إذ يقف على ترسانة من الوسائل الحجاجيّة، وصورها المتعددة، في أبواب كتابه، التي تبسط بين ثناياها طاقة حجاجيّة تُحرك الراكد، وتُبرز الباطن، ضمن إيقاعيّة فاعلّة.

---

[13]الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات،د.ط،مكتبة لبنان،بيروت، 1990م،ص73.

[14]أبو البقاء الكفويّ،الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة،ج1، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصريّ،د.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت،د.ت، ص409.

[15]عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، ص17.

[16]حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته،ط1، عالم الكتب الحديث،عمّان،2010م، ص270.

[17]ينظر: صابر الحباشة، التداولية والحجاج،د.ط،دمشق، 2008م،ص168.عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة،ص17.

وقد ألمح الجاحظ في غير موضع من كتبه إلى الحجاج والمتعلقات الحافّة به، ومن ذلك قوله:"قال بعض الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة..."[18]. وتجلّت مظاهر الحجاج عنده في تعريف البيان، فعرّفه بأنه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون ضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنماهو الفهم والإفهام، فبأي شي بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان"[19]. فمفهوم البيان عند الجاحظ تتنازعه وظيفتان،أولاهما:إفهاميّة، تتعلق بعناصر المقام وخصائصه، وثانيهماحجاجيّة إقناعيّة، وأساسها الفصاحة وأحكام الحجة، ومعرفة أحوال المخاطب[20]، وقد عالج الجاحظ استراتيجية الخطابة، في أبعادها الثلاثة تلك، التي انتهجها أرسطو المتعلقة: بالخطيب والمخاطب والخطبة؛ قصد الإفهام والتوجيه، في مادة إقناعيّة لاحبة.

ولما كان الجاحظ اعتزاليًّا، ينتمي إلى مذهب المُعتزلة، التي كانت تُعلي من شأن البيان والحجة، فقدحرص الجاحظ على إثبات مكانة العرب العاليّة في نفوس أبناءها، ودحض الشعوبية التي شوهت نقاء القريحة العربيّة آنذاك، فكان من أهداف الجاحظ في سفر (البيان والتبيين)، تأسيس منبر صريح للدفاع وإدلاء الحجج، بتقديم الأدلة؛ لدحض حجج الشعوبية التي طعنت في ملكة العرب الخطابيّة، وإثبات ما للعرب من فصاحة وبيان.

وكان لأثر مسْلَك الجاحظالاعتزاليّ مكان، في لغتهاللاحبة،وفي خطابته ومصادرها المتنوعة، التي تُظهر نزعته الكلاميّة المندرجةمن عقيدة تمجد الحجة والبيان، مجترحًا إلى فلك الحجاج وأصول الاحتجاج منطلقًا وبيانًا. و"تعود نظرية الحجاج عند الجاحظ إلى علم الكلام القائم على البرهنة العقليّة، على المسائل المتعلقة بالإلهيات والعقائد، حيث يتوجب على المتكلم أن يؤسس مواقفه الكلاميّة على براهين نظرية داعمة ومؤيدة"[21]، لرؤيته المرجوة.

وقد أبان الجاحظ غاية الحجاج في مُستهل (البيان والتبيين)، فقال ينبغي "الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إليه أسرع"[22]، وفي تعبير آخر "لتنثني الأعناق إليه"[23]؛ تحقيقًا لاستمالة السامع، والتأثير به، وبذلك تستنهض السمة الحجاجيّة مرامها المتوخى، تفاعلًا ديناميًّا بين أطراف العمليّة التواصليّة المرسل، والمستقبل، وصولًا إلى الرسالة في غائيّة المراد الإفهاميّ.

---

[18]الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين،ج1،تحقيق: عبدالسلام هارون،ط7،مكتبة الخانجي،القاهرة،1998م،ص88.

[19]المصدر السابق،ج،1ص56.

[20]ينظر: الأمين،محمد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، 2000م، عالم الفكر، الكويت، م28، العدد3، ص70.الجاحظ، البيان والتبيين،ج1،ص56.

[21]سرحان، هيثم، الحجاج عند الجاحظ،2011م،االمجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة مجلس النشر العلميّ، جامعة الكويت،العدد 115، ص58-8.

[22]الجاحظ،البيان والتبيين، ج1،ص19.

[23]المصدر السابق،ج1، ص23.

وقد توسّل الجاحظ إلى تحقيق الديناميّة الإقناعيّة في الخطاب، بآليات حجاجيّة، وهي "محاولة واعية للتأثير في السلوك"[24]، التي تجعل من الخطاب خطابًا ناجعًا فعّالًا،هذا وقد حدّ (بيرلمان وتتيبكا) الحجاج بأنه "دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[25]؛ فموضوع درسآليات الخطاب وتقنياته يستهدف المتكلم منجهة تغيير نظام المعتقدات والتصورات عند مخاطبته، بالوسائل اللغويّة والإقناعيّة[26]، في سبل التأثير الفعّال .

إنّ أهم ما عُرف عن الجاحظ، هوتوطّيد مشروعه الحجاجيّ باستنجاد آليات حجاجيّة، تُمسك حججه، بأدوات ومضامين تُهيمن فيها الصيغة الإقناعيّة، فتمارس بوساطتها فعل التأثير والاستمالة. وقد انطلقهذا البحث في محاولة للكشف، عن بعض السمات الحجاجيّة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، في بعض الموضوعات المُختارة منه، استنادًا لحدود البحث.

*** الجانب التطبيقيّ**

اهتمّ الجاحظ بالوظيفة التأثيرية للبيان، بِجلب استجواد المُتلقي، واستحوذ على اهتمامه، بوساطة شحنه بشحنة حجاجيّة، باستجداء تقنيات وأدوات إقناعيّة، يوظفها في خطاباته، ونصوص دفتي كتابه (البيان والتبيين)، وانطلاقًا من الفكرة التي أخذت شأوًا كبيرًا بين المُفكرين والفلاسفة، بأننا نتكلم بقصد التأثير.

وتأسيسًا على ذلك، سنحاول في هذا المقام (كشف اشتغال الجاحظ بالفعاليّة الحجاجيّة)، بدراسة مختارات من كتابه البيان والتبيين، ضمن ثنائية متضادة، هي ثنائية الكلام/ الصمت،وسنحاول أن نبحث في السمات الحجاجيّة والطاقة الإقناعيّةالتي اعتمدها الجاحظ في نصوص كتابه.

أولاً– الكلام

سجل الجاحظ في كتابه(البيان والتبيين)، بعضًا من الشائبات، والمحامد، وأخذ يُفنّدها في مقامها الأصيل، ويضعها في صواب الموقف، ونجد أن الجاحظ برع في المفارقة، التي لها دور في عملية الإقناع؛ إثباتًا للمغزى الذي ينشده الجاحظ في تدعيم رأيه.

وقد أشار أرسطو إلى ذلك عندما قال إن مساواة الأفكار المتضادة محدثة للشك؛ فإذا فكرنا في الشيئين، لها في كل واحد منهما سببًا يصاحبه[27]. وتتجلى دراسة نصوص الجاحظ في هذا الإشكال، بتفعيل طاقتها الحجاجيّة؛ في كونها أداة لسَبْر المواقف المضادة، بهدف إثباتها أو دحضها، وصولًا إلى النتيجة الواقعة.

---

[24]محمد العبد، النص الحجاجيّ العربيّ- دراسة في وسائل الإقناع ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته-،ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2،ص678.

[25]ينظر: العمري، محمد، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول،ط2،دار أفريقيا الشرق،الدار البيضاء،2012م،ص70.عبد الله، صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة،ص27.

[26]شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم،د.ط،كلية الآداب،د.ت، ص59.

[27]الطاهر واعزيز،أرسطوطوبيقا ضمن كتاب المناهج الفلسفية المركز الثقافيّ العربيّ،ط1،الدار البيضاء، المغرب، 1990م، ص22.

وفي هذا التأسيس الحجاجيّ، سنجد أن موضوعنا الأوّل كثرة الكلام، ويتبادر للقارئ في مُستهلّ الأمر، أنهيندرج في اتجاه زلِق، إلا أنّه في حقيقة الأمر قد ذكر في باب ممن لا يكاد يسكت من البلغاء والخطباء، وسنتبين هل كثرة كلام هذه الفئة، التي يُسمع حديثهم بمنزلة، يُعد حديثهم الزائد حديثًا لاطائل له أم حديثًا يحتمل القبول والسماع؟

وقد ذكر الجاحظ في مَيْعة باب ممن لا يسكت من البلغاء، أبو وائله إياس المزنيّ الذي قال له عبد الله بن شبرومة: "أنا وأنت لا نتفق، أنت لا تشتهي أن تسكت وأنا لا أشتهي أن أسمع"[28]، ثم بعد ذلك بقليل جاء الجاحظ بقول أبي الحسن لإياس، أنه قيل له: " ما فيك عيب إلا كثرة الكلام..قال: فالزيادة من الخير خير"[29]، وبعد أن بسّط هذين القولين، جاء يُعلق على قول أبي الحسن ويخالفه بداءة، بقوله: "وليس كما قال، للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال،فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعتُ الحكماء يعيبونه"[30]، فنجد بعد ذلك أن الجاحظ عارض جواب إياس على كثرة كلامه، بأن في نافِل القول وزيادته خير كثير، ذلك أن للكلام قصد، وإن تحققت غايته المنشودة، وثبت للسامع مُراده اكتفى، فللسامع مدى لنشاط ذهنه وحضوره،وبذلك يصبح الترداد وكثرته لا جدوى منه ولا طاقة لسماعه، فيضيق على المتلقي (الباتوس) الذي هو العنصر الرئيس لدى الجاحظ واهتمامه، " فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجيّة المستخدمة على إقناعه"[31]، فبذلك يقوم هنا الجاحظ بمراعاة مبدأ التفاعل بين الخطيب والسامع، الذي انطلقت منه البلاغتان القديمة والجديدة[32].

كان الجاحظ واعيًا لمقام المتلقي،وتوسّل بإبراز الحجج التي تُميط اللثام عن الفضاء البروبليماتولوجيّ الإشكاليّ بقصد توجيه خطابه، فنجد في إيراد القول الذي فيه (ما فيك عيب إلا كثرة الكلام)، حصر وتوكيد لإبراز صفة كثرة الكلام عليه، وهذا مؤشر حجاجيّ يندرج تحت مفهوم العامل الحجاجيّ الذي "يقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجيّة التي تكون لقول ما"[33]، ويمكن أن نلحقه بفئة التبئيرات تلك التي تُسلط الضوء على قضية ما يكون مؤداها التحذير أو عملية تيّقظ للمتلقي والسامع.

ويمكن أن نلمح،أيضًا، إلى ملمح حجاجيّ آخر في قول عبدالله بن شبرومة، وهو التقسيم الذي يقوم على تقسيم الخطاب، باعتماد رابط ما، يُفصّل لمعنى مجمل قبله، وهو هنا بنتيجة عدم الاتفاق بين الطرفين، وفيها أيضًا درجيّة في السلم الحجاجيّ –الذي سنأتي له في شيء من التفصيل لاحقا– ففعل الكلام وكثيره وعدم السكوت، سيندرج تحته عدم الإصغاء والسماع؛ والذي من شأنه أن يبطل حدث الكلام، فالحديث يتطلب مستمع ما، والخطاب يتطلب مراعاة لأدبيات القول.

أ– معقِل الكلام

[28]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص67.
[29]المصدر السابق، ج1،ص68.
[30]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص68.
[31]صابر الحباشة، التداولية والحجاج ،ص21.
[32]مشبال، محمد، في بلاغة الحجاج (نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات)ط1،دار كنوز المعرفة،عمّان، 2018م،ص56.
[33]أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1، العمدة في الطبع،الدار البيضاء،2006م، ص112.

يتراءى للمُتفحصِ الحجج النقليّة المُنتشرة في أعطاف كتابه،التي توزعت بين مشاهداتٍ عينيّة، ومواقف تاريخيّة تؤطر الحدث، بحرفيّة حيّة، وتُبرز بجلاء غاية الجاحظ من إسترفادها، وفي قولة موضوعنا كثرة الكلام نلمحُ موضعًا ورد في غير بابه، لنستند عليه في كشف مفهوم الجاحظ لكثرة الكلام عند الخطباء، فيذكر قول الهيثم بن صالح لابنه،وقد كان خطيبًا: "يا بني، إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب"[34].وتتأتى حجاجيّة الجاحظ هنا في انتقائيّة حصيفة، تُبرز أن الكثرة بما تخصُّ الكلام مهلكة لصاحبها، فقد عدّ ذلك من مجانبة الخطأ، ولتوكيد ذلك استعان هنا بحجتين:-

١- حجة المقابلة : إذا أقللت من الكلام أكثرت ، وإذا أكثرت من الكلام أقللت

فالمقابلة تُظهر دلالة المقصود للمتلقي بفاعليّة كبيرة، بمقابلة اللفظ باللفظ؛ مما تحقق تأثيرها على الباتوس في إقناعه أن قليل الكلام منجاة لصاحبه من مسلك زلق.

٢- حجة الاتجاه: أقللت و أكثرت

تؤدي مواضع الكم القلة، أو الكثرة دورًا حجاجيًا فاعلًا، ومعنى حجاجيًا يختزل في تناقضها تأكيدًا ظاهرًا.

وتحقيقًا لما أورده الجاحظ، ولكونه اعتزاليًا، أيضًا، سنجد أنه ذهب في حِجاجه إلى عمرو بن عبيد وهو من كِبار المعتزلة، إذ"كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم، فإن تكلم لم يكد يطيل. وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف"[35]، فقد "كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكت ومن سقطات الصمت"[36]، أي أن إطالة القول، سيترتب عليها تكلفة كبيرة في حق القائل والسامع، فهي تفتح باب التكلفِ وأسبابه، حتى تظهر السطحية دون الجوهر المُراد من القول، مما يزيد على القول زيادة لربما تدخل في ما لا يعلم ولا يتيقن العلم فيه، فينحل الصواب بالخطأ.

نستشّفُ من هذه القولة تقنية حجاجيّة، إذ يقع هذا القول في تراتبيّة هرميّة تُحيل إلى نتيجة يتقلّد لها، وهي حضور نظرية السلالم أو السُلم الحجاجيّ، الذي يعد "إقرارًا للتلازم في عمل المحاجة بين قول الحجة (ق) والنتيجة (ن)، ومعنى التلازم هو أنّ الحجة لا تكون حجة بالنسبة للمتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أنّ النتيجة قد يصرّح بها وقد تبقى ضمنيّة"[37]، وقد صرح بها الجاحظ هنا ، ويمكن تمثيل ذلك، بما يأتي:-

ن: لا خير في الكلام يأتيك به التكلف

ق2: عرضت للمتكلم أسباب التكلف

ق1: إذا طال الكلام

يتبدى من هذا الشكل أن الحجاج الذي أتى به الجاحظ، هو حجاج تصاعديّ، أي سلم الحجج التصاعديّة يُرتب بإيراد الحُجج من الحجج الضعيفة أو البسيطة إلى الحجج القوية، فالحاسمة وهي النتيجة، وهذا التدرج من شأنه أن يرفع

[34]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص143.
[35]المصدر السابق، ج1،ص75.
[36]المصدر نفسه، ج1،ص 75.

[37]حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم،ص 363.

مقدار الإقناعيّة لدى المتلقي، وإذا كان يترسخ في ذهن المتلقي الريبة والحَيرة، يأتي بحجة أقوى؛ تجعل من الحَيرة وضوحًا يصل به إلى القول الأخير الذي يكون بمكانة الدليل الأقوى.

ب- مَوضِع الكلام بقليله

يستند الجاحظ على شواهد شعريّة، وأقوال تصِف مواضع الكلام الحسن، الرزين في قلة حروفه، فالإفهاميّة لا تتطلب كمًّا من الحروف، ورصفًا من الألفاظ، بل هي تتطلب أن تقف عند مقصديتها ببلاغة وجيزة.

يقول الجاحظ: إن " أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه"[38].وقد ذكر الجاحظ أبياتًا تصف جعفر بن يحيى، "كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف"[39]. وجاء يُعظم منطق شبيب بن شيبة، فهو في كل موقف كان يبلغ ما لا يبلغه الخطباء بقليل الكلام، فكان كلامه يتصفُ بالرشاقة والسهولة والعذوبة[40]، ثمّ استحضر قول ابن أحمر[41] في الشاهد الشعريّ:-

تصنع الحديث على مواضع

وكلامـــــــــــــــــــــها من بعده نزرُ

الذي يتحدّث عن الكلام الحسن الموجز، وهذه الحُجة تستمدّ صوابها من كونها قياسًا شعريًا مُتفقٌ عليه، إذإن الشاهد الشعريّ يعد دليلًا واحتجاجا أو نقول دليلا احتجاجيا، يقوم على توليد المعنى[42]، والمتفحّص في سفر البيان والتبين يجد أن الشواهد النقلية غزيرة، وافرة، وأن للنماذج الشعريّة حضورًا مُهيبًا، وهذا يدل على اتّساع حصيلة الجاحظ من معارف عصره، ومخزونه الوافر، وتفنّنه في إحتلاء كنوزها،التي من شأنها أن تجعل الخطاب يتنامى ويعظم في نفس السامع، مما يبدد شكه، ويجعله يذعن لحجته.

يمكننا القول: بأن الجاحظ يريد أن يُقنع المتلقي بأن الكلام القليل الموجز، له أن يحقق غايته التواصليّة والإفهاميّة في حدود لا تُكلِف السامع جهدًا من أجل الفهم، أو الإطالة.

ج- ترداد الكلام

لا شك أن ترداد الكلام نفسه عامل يثوي خلف تهلُكة كثرة الكلام وسقطاته، فهي زيادة فوق زيادة، وقد حرص الجاحظ بين دفة كتابه أن يُبين حقيقة المسألة، فأورد ما قيل للعتابي عند سؤاله:"ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة..."[43]، وجعل الجاحظ منها حجة دامغة، فكيف يحتلُ الكلام الواضح مترلة البلاغة والبيان؟ فتلك هي إقناعيّة القول وحِجاجيته.

وفي السياق نفسه ينقل الجاحظ موقفًا عينيًّا، فيما قاله عبد الله بن مسعود: "وجعل السماك يومًا يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده؟ فقال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملـّه من فهمه"[44]، ويمكن تحديد الكوامن

[38]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، 59.
[39]المصدر السابق، ج1،ص73.
[40]المصدر السابق، ج1،ص74.
[41]المصدر نفسه، ج1،ص149.
[42]سلمان، علي محمد، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج(رسائله نموذجًا)، ص65.
[43]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص74.
[44]المصدر السابق، ج1،ص70.

التي يكتنفها الموقف الكلاميّ، الذي يتجسد برافد من روافد الحجاج، بما يأتي:-

١- الحجة الاستفهاميّة : قوله: كيف سمعت كلامي؟

إن للسؤال طاقة حجاجيّة، وهو مُحاصرة المخاطب، وتقييده بالإجابة؛ مما يحقق تفاعلًا ديناميكيًا، من حيث إمكاناتها التبئيرية(التبئير).

٢- الروابط الحجاجيّة

إن من أهم المؤشرات والتقنيات الحجاجيّة، الروابط الحجاجيّة، ومن تلك الروابط السانحة في النص، (حتى، قد).

يؤدّي الرابط (حتى) في قوله: (أردده حتى يفهمه من لم يفهمه) دورًا حجاجيًا أسهم في الربط بين الأقوال من الحجج، والرابط (حتى)"تتسم الحجة الواقعة بعده بأنها أقوى من الحجة التي قبلها"[45]، ولكن في هذا المقام إن توقفنا إلى حد هذه الجملة فستكون هي النتيجة الأقوى، في أن ترداد الكلام من الأمر الجيد، الذي يأتي سامعَه بالفائدة، ففي تكراره بيان لما جُهل أو بيان بما عُرف .

أما الرابط (قد)، ففي قوله: (إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملــّه من فهمه) يُقدم حجة أولى وما بعد الرابط (قد) تكون النتيجة منها، ونجد أن لكلا الحجتين التوجه الحجاجيّ نفسه، وهو الضجر من فهمه بسبب التكرار والإعادة وإن لم يفهمه من فهمه.

ويمكن تكوين المسألة كالآتي: حجة + قد+ نتيجة = صورة حجاجيّة قوية.

فنجد أن النصّ قدأنتج سُلما تصاعديًا رُتب بالشكل الآتي:-

ن: الضجر لمن سمع الكلام وفهمه

ق3: أن يفهم من لم يفهمه

ق2: الترديد حتى يفهمه من لم يفهمه

ق1: كلام حسن لولا كثرة الترداد

ويمكن أن نشير إلى أن للروابط الحجاجيّة مكانًا في هرميّة السُلم الحجاجيّ، الأمر الذي يُكسِب الحجة قدرة حجاجيّة في مستوى السُلم، ويحوز استعراض الحجج في تراتبيّة على نشوء السيرورة الحجاجيّة.كما يمكن تكّشف بؤرة الإقناع في النص، وهي الإفهام أو الفهم، فقد احتلّ النص على صِغره بُروز لفظ (يفهم) فيه مقدارًا كبيرًا، بالنظر إلى حجم الخطاب، وكأنه نواة الحجاج، إذ تكررت الكلمة ست مرات.

إلا أنّ الجاحظ لم يوقف سردِ حججه في التحرُجِ من إعادة الكلام، فنجده يذكر حججًا غير صناعيّة — على حد تعبير أرسطو- وهي تلك الحجج الجاهزة التي لا تصدرُ عن الخطيب نفسه، وقد قدّم ما قاله"عباد بن عَوام عن شُعبة، عن قتادة، قال: مكتوب في التوراة: لا يعاد الحديث مرتين"[46]، وهو استنادٌ آخر يسوقه ليحقق فكرته في تكراريّة القول، إلا أنّ الحجج تكتسب قوتها من مبعث يقرّه السامع ويؤمن به، ومن أوثق المصادر التي يذعن لها، المصدر التشريعيّ، وهنا جاءت من مذهب وديانة أخرى. ولربما تكتسب الحجة مصداقيتها في كون الجاحظ من ساقها في بيانه، إذ إنّ "الفرد

[45] أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج،ص71.

[46]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص70.

يميل إلى الإقتناع بالإيحاءات التي يعتقد أنها تصدر من الأشخاص ذوي المكانة الاجتماعيّة البرّاقة"[47].

وبعد أنّ استهلّ الجاحظ الباب بعرض الحجج النقليّة، من مناهل متعددة، ذات المترع الإقناعيّ، نجده يرجّح كفة الباتوس، ففي صفوة قوله،أشار في الترداد إلى "أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتى إلى وصفه وإنما ذلك على قدر المستمعين له، ومن يحضره من العوام والخواص"[48]. و لم يكتفِ بذلك بل وضع مقامًا للترداد الحسنِ الثابت، مستخدمًا بذلك رابطًا توكيديًا على كلامه، إذ يقول:"وقد رأينا الله عز وجل ردّد ذكر قصة موسى، وهود، وهارون،وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وعاد، وثمود، وكذلك ذكر الجنة، والنار، وأمور كثيرة"[49]. إنّ الأمر هنا قطعيّ لا يمكن أن نستعين بحجج، فقول الله فوق كل حجة ، ولترداد القصص مقصديّة لازبة. ولكن لا يمكن فهمُ الجاحظ هنا بإدلاء حجة لا يمكن البتُ بها؛ إذ يحيلُ ذلك إلى أنه غير مقتنع فينهج عرضه الذي جعل من الترداد ثقلًا على المستمع(المتلقي) ، حتى نجده يعرض حجة تُلمح بحسن التكرار.

ونجده كذلك يُعلق في معرضِ حديثه، قائلا:" وما سمعناه بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عيًّا إلا ما كان من النّخار بن أوس العُذري، فإنه كان إذا تكلم في الحمالات، وفي الصفح والاحتمال، وصلاح ذات البين، وتخويف الفريقين من التفاني والبوار، كان ربما ردّد الكلام عن طريق التهويل والتخويف"[50]، حيث يدلل في إضافته أن للترداد مواضع يُستحب الإعادة فيها، كمافي الصُلح الاجتماعيّ وتحقيق التسامح بين الأفراد. ولكن ستعي أن الجاحظ يثير لُبابة عقل المتلقي بحججه وإدلاءاته، فيشعره بإقتناعه بها، حتى يجعله في يقين لاحب، ثم يأتي بنقيض أو بأقوال مغايرة لوجهها الأول، ليضع المتلقي في مفترق السؤال والشك؛ وبذلك يجعله شريكًا بالتفاعل في الخطاب والمُساجلة.

ثانيًا– الصمت

وإن كان الكلام فعلًا حيويًا، فالصمت إجراء (تكتيكيّ) يُتوخّى به مباغِي عدّة،وبذا سنتطرق لموضوع الصمت، وهو المضادّ لموضوع الكلام وكثرته، فنقول: إنّ معرض السؤال هنا، هل الجاحظ في عرضِه للموضوعين رجح الأول دون الثاني، أم أراد إثبات نجاة الثاني عن الأول، أم أنّه اتخذهما نقيضًا مُحتمًا دون أن يضع لموضعهما موقفًا يُجزِهما في موقف ما؟ ويمكن كشف ذلك بالنظر إلى خطابه وفق التجليات الحجاجيّة، المنْبَسطة في أطياف قوله، والحافّة في شواهده النقليّة.

أ– الحثّ على الصمت

يتأتى الترغيب للصمت، من واقع الحجج والمواقف العينيّة التي يستندُ عليها الجاحظ، في البيان والتبيين، والموجودة في باب الصمت، في أجزاء مُتفرقة من مواضيع شتى تُنادي بلزوب الإطراق، ومن تلك الحجج التي ساقها في إدلاءته التي تُفصح عن حضّ الجاحظ للصمت، في ذكر ما قاله عبدالله بن معاوية بن جعفر[51]، في الكلام الموزون:

---

[47]عبد الرحمن عيسوي،دراسات في علم النفس الاجتماعيّةد.ط،دار النهضة العربيّة،بيروت،1974م،ص19.

[48]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1،ص70.

[49]المصدر السابق، ج1،ص70.

[50]المصدر السابق، ج1،ص70-71.

[51]المصدر نفسه،ج1،ص150.

فالزمِ الصمت إن في الصمت حكما

وإذا أنت قلـــــــــــــــت قولا فزِنـــــــــــهُ

نستشّف من إيراده للشاهد الشعريّ، بما فيه من التكرار لمركز حجته وهي(الصمت) هذا التكرار الذي يجعل من مستمعه يُصدق ويستَيقن ما للصمت من نجاعة، مما يُذعن لقوله، فالتكرار له وظيفة حجاجيّة لاحبة في عملية التأثير على المتلقي، فضلًا على مكانة الشعر عند العرب،فاسترفاد الجاحظ للشواهد الشعريّة يحقق لخطابه جداء مسألته، وسلبًا لأذهان مُستمِعه. ويمكن أن نُمثل البيت الشعريّ على السلم الحجاجيّ، في الشكل الآتي:

ق2= إذا قلت قولًا فزِنه

ق1= إنّ للصمت حِكم

ن= مُلازمة الصمت

سيتراءى للناظر،أنّ الحجج تم إيرادها من الحجة الأقوى وهي اتباع الصمت، وبالاستعانة بتقنية حجاجيّة مساندة على قوة الحجة وهي صيغة الأمر، إلى الأقل منها قوة، وهي نصيحة تؤكد مكانة الصمت في أنه يضفي على المرء رصانة، فالأضعف: وهي إنْ تكلم الواحد فيأتي بأقل الكلم، وهذا ما يُطلق عليه بالحجاج التنازلي، الذي يبدأ بالغاية الأسمى فلا مجال للشك أو الحيرة فيها، ثم يتدرج إلى الأضعف في وجهته الإقناعيّة.

ثمّ يأتي الجاحظ، في هدى ما قالوا: "الصمت حكم وقليل فاعله. وقالوا: استكثر من الهيبة صامت"[52]، فنراه يتحدث عن أنّ الصمت صفة النبلاء وهي تلك الصفة التي تضفي على صاحبها جلاء وسُلطانًا، إلا أنّ صانِعه نزيرُ، فكأن الجاحظ هنا يحثُّ المتلقي على الاحتذاء بالقلة؛لأن لصنعتهم أُبهة. إذ قيل مرة أنّ من جماع البلاغة طول الصمت[53].

ويزيد على ذلك داعمًا إضافيًا يستدعي قبولًا رحيبًا، بإستئناس ما قاله(علي بن أبي طالب): على أن أفضل العبادة الصمت[54]، مما يضفي أُنسًا على السامع وتأثيرًا وجدانيًّا على روحه إذ إنّ لهذا القول أثرًا دينيًّا يُحتم على المتلقي الأخذ به كرمًا في الأجر الذي سيتركه صنيع الصمت، وقد قيل في مدار الأمثال السائرة "إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"[55]، وهذا ما نقله الجاحظ في خطابه لإدراكه دور الأمثال في الإقناع، فهي من أنجع الوسائل الحجاجيّة الفاعلة؛ فهي قارة في مخيال المجتمع الثقافيّ وهي أقرب ما يُتداول بينهم،وهذا من شأنه أن يترك مصداقيّة وموقفًا تفاعليًّا ناجعًا في نفس المتلقيإذ يجب استعمال الأمثال –حسب أرسطو–لأن الإقناع يتم بها[56]، وهذا ما التفت إليه(ابن وهب) من علاقة المثل بالحجاج إذيقول عن ضرب الحكماء للأمثال:" وإنّما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمونة إلى نتاجها"[57]، وهذا ما جاء به الجاحظ في تمثيلاته الإقناعيّة.

[52]الجاحظ، البيان والتبيين،ج1،ص146.
[53]المصدر السابق،ج1،ص61.
[54]الجاحظ،البيان والتبيين،ج1،ص157.
[55]المصدر السابق،ج1،ص146.
[56]أرسطوطاليس، الخطابة،ص157.
[57]ابن وهب،إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب،و خديجة الحديثي،ط1،جامعة بغداد،بغداد، 1967م،ص16.

وقد حفل الجاحظ في تأثيث حثّه على الصمت موقف رجل من أهل الشام كان في حلقة أبي مسهر،فقال: " ذكرنا الكلام وبراعته، والصمت ونبالته، ثمّ قال: ... إنّك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت"[58]، سيتراءى للناظر في هذا الشاهد النقليّ ميكانيزمات حجاجيّة، يمكن أن نذكر منها، الآتي:-

١- السّجع

البيّن أنّ الجاحظ يُكمل مسيرته في انكِبابه على ما ينهض بالعمليّة الحجاجيّة، وهذا ما نجده في القول الذي جاء بذكره: (الكلام وبراعته، والصمت ونبالته)، وهو الذي يكون بتماثل الحرف الأخير في الجملتين، ذّاك السجع الذي يؤدي إلى نوع من الجرس الموسيقيّ ينتج عنه نوع من التنغيم المؤثر في نفس السامع، ويوجه ذهنه إلى الإستمالة والإذعان[59]، ببلوغ هدف الإقناع المرتبط بالنسق الهارمونيّ أوالإيقاعيّة التأثيريّة، الناتج عن وجود السجع، وهو رافد من روافد الإفهام.

٢- حجة المقابلة

في القول: إنّك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت.

وهذا التقابل يحملُ في سرده جملةً ووظيفة حجاجيّة، فالتقابل يُقرب الدلالة القصديّة من تلك الألفاظ، وفي هذه الجملة يُلاحظ التأكيد في البدء على لفظ الصمت، وهو المُراد هنا، وستجد أن النفي جاء على لفظ الكلام، أي استحقاق الصفة اكتسبتها الصمت في البراعة والنُبل.

ب- منجاة الصمت

وكان لحثّ الجاحظ على الصمت في حجاجه؛ مدعاة لحفظ المرء، ونجاة لموقفه، فنجده يتسلسل في "الاستشهاد بالقدماء يستمد هذا النوع قوته الحجاجيّة من نموذجية القدماء باعتبارهم روادًا وأقطابًا"[60]، ومن ذلك إيراده لموقف الأعرابيّ الذي كان"يُجالس الشعبيّ يطيل الصمت فسأل عن طول صمته فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم"[61]، إذ إنّك "لا تسمع الناس يقولون: جُلد فلان حين صمت، ولا قُتل حين سكت. وتسمعهم يقولون: جُلد فلان حين قال كذا وكذا، وقُتل حين قال كذا وكذا"[62]، يُعرب هذا الشاهد على حصيف اختيار الجاحظ في انتقائيّة مُدركة للمحمول الحجاجيّ في هذا الموقف، مما يقوم على طاقة إقناعيّة تقتضي بإظهار القبول للمتلقي، ومن تلك الوسائل اللاحبة فيه:-

١- السّجع

(أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم)

وهي الوظيفة البلاغيّة الحجاجيّة التي ما فتئ الجاحظ أن يوظفها في خطاباته، فالجرس الإيقاعيّ شّكل له معنى ذا تأثير وقبول.

٢- العدول من صفة إلى صفة أخرى

البيّن في قولهم: (جُلد فلان حين صمت، ولا قُتل حين سكت)، تجده عدل عن لفظ (صمت) إلى لفظ

[58]الجاحظ، البيان والتبيين،ج1،ص143.
[59]محمد العمري،البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص112
[60]مليكة غبار أحمد، الحجاج في درس الفلسفة،ص33.
[61]الجاحظ، البيان والتبيين،ج1،ص112.
[62]المصدر السابق،ج1،ص146.

(سكت)، إنّ الألفاظ المعدول إليها تأتي شبيه بما يسميه (برليمانوتيتيكا) بالحجة البراغماتيّة، تلك الحجة التي تمكن من تقويم عمل ما أو حدث ما في ضوء ما يترتب عليه من نتائج إيجابيّة أو سلبيّة،فندرس تقويم عمل الصمت، في ضوء ما يترتب عليه من نتاج إيجابيّة هي النجاة و النُبل والسلامة...[63].

٣- النفي

ستجد،أيضًا، في قولهم: (لا تسمع الناس يقولون: جُلد فلان حين صمت، ولا قُتل حين سكت. وتسمعهم يقولون: جُلد فلان حين قال كذا وكذا، وقُتل حين قال كذا وكذا) فهذا موجهًا حجاجيًّا فاعلًا في النفي وقوة دلالته، إذ إنّ النفي يُعطي للقول وظيفة حجاجيّة في إشعار المخاطب على التنبيه والأناة، ويُلاحظ من ذلك أن النفي والإثبات هو نهجٌ جدليّ امتاز به الجاحظ في كونه اعتزاليًا محافظًا.

٤- حجة الإتجاه

وستجد في هذه القولة استعمالًا حجاجيًّا آخرًا، وهو استخدام مُفردات تدل على اتجاه يدعو إلى الرفعة أو الامتهان، وسيتجلّى للناظر لفظ (جُلد) و(قُتل) الواقعة على كثير الكلام، وهي مكانة سحيقة، لا يخطوها من كان رزينًا قليل الكلام، أو صامتًا ساكنًا. فيبين الجاحظ من خلال هذا الموقف أن في الصمت سلامة ونجاة، إذ إنّ اللسان قد يُذهب بصاحبه إلى وادٍ غير ذي زرع، لا يجد فيه إلا المهانة والهوان، وقالوا: اللسان سَبُعٌ عقور، وأنّ مقتل المرء بين لحييه وفكيه[64].

ثمّ يأتي الجاحظ بحجة دامغة، تفرض سلطتها ومركزيتها لدى المتلقي، وهي ما نقله من الحديث النبويّ: "رحم الله من سكت فسلم، أو قال خيرًا فغنم. والسلامة فوق الغنيمة؛ لأن السلامة أصل والغنيمة فرع"[65]، فنستشف من الحديث المأثور أن الصمت هو الطريق الأسلم للمرء، فإن لسان المرء قد يجلب له الشقاء أوالعطايا؛ فطريقه متأرجحه بين السلامة والهِياج، أما مسلكِ الصمت، فكُله خير.

ومن تلك التقنيات السانحة في الحديث النبويّ:-

١- حجة السلطة

كون الحديث النبوي شاهدًا من التشريع الإسلاميّ، فهو يتمتع بقيمة سُلطويّة عندالمتلقي، وهي تلك السلطة التي تستمدُ قوتها من ثقافة مرجعياتها الأولى، القرآن والسّنة، وجاء الجاحظ يعرضُ نصب يوفر له سلطة عُليا في قبول المتلقي؛ ليثبت الحُجة ويقوي البرهان فلا يكون هناك مجال للشك أو الريبة. ثمّ أتى الجاحظ على ذكر من قالوا في الصمت باستفهامهم لمعضلة العيّ:"أي شيء أستر للعيّ؟...قيل: فيكون ذا صمت"[66]، فإنْ عجز المرء عن الكلام، لن يعجزَعن صمتٍ يأتي له بالفائدة والنجاة، فبذلك من نحا نهج الصمتِ في المزالقِ ومجالس الباطل، أنجى نفسه من عناء شاق، وحفل بثواب الصمت.

٢- مواضع الصمت

وبعد أن استجدى الجاحظ أفانين الحجاج، أتى بزبدة حجته، التي استند فيها على حجة التتابع أو الوصل السببيّ،ويُعلل فيها حثّه على مواطن الصمت وسلامته، فيقول معلّلا:"وإنّما حثوا على الصمت؛ لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرع منهم إلى معرفة خطأ الصمت. ومعنى الصامت

[63]صابر الحباشة، التداولية والحجاج،ص195.
[64]الجاحظ، البيان والتبيين،ج1،ص112.
[65]المصدر السابق،ج1،ص146.
[66]الجاحظ، البيان والتبيين،ج1، ص19.

في همته أخفى من معنى القائل في قوله، وإلا فالسكوت عن قول الحق، في معنى النطق بالباطل"[67]. نستشفُ من ذلك، أنّ تحريضهم لفعل الصمت، يتأتى باحتجاب هفوة المُتكلم، إذ لا يمكن إقرار الخطأ إنّ لم يُسمع أو يُقال، فتجعل من سيرورة القول طريقًا سَلِسًا لِتكشّفِ زللِ القول، بيد أن إطراق الصامت يستعصي على السامع معرفة صواب قوله. ولكنّ الأمر ليس كله بشاكله واحدة؛ إذ إنّ للصمت مواضع يُحمد عليها، ومواضع يُشاب على إطراقه، فإن السكوت عن الحق باطلٌ، فالصمت من مواضعه أن يُمسك المرء عن قول الباطل، لا أن يسكت عن قول الحق، فإن للكلام حقٌ وُجب على المرء الخوض فيه؛ إحقاقًا للحق.

وهذا ما خطب به سليمان بن عبد الملك حين قال:"...الكلام فيما يعينك خير من السكوت عمّا يضرك، والسكوت عمّا لا يعنيك خير من الكلام فيما يضرك"[68]، أي إنّ من صلاح المرء تركه ما لا يعنيه، إذ إنّ للسانِ عثرات وسقطات تُودِ بصاحبها إلى التهلكة فيما لا يُخصه من القول، فإن كان لقولِه إصلاحًا لحاله، وكسبًا في حقه؛ كان له أجر القول.

ولا محيص من القول،من أنّ الجاحظ لا ينفك يفاجئ المتلقي بحجج مُخالفة في درجة ما تمّ إيراده، حتى تجده يتقلّد حجة حاسمة في قولها في البناء الحجاجيّ وهي تقنية القسم، كما في قوله:" ولعمري إنّ الناس إلى الكلام لأسرع، لأن في أصل التركيب إنّ الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة على ترك العمل والسكوت عن جميع القول. وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت"[69]. البيّن من حجته أن الكلام هو سيد المواقف الحياتيّة، إذ إن مطالب الناس تُطلب بالقول وهو السائر بينهم، وإن كان للسكوت فضائلُ إلا أنّ في دارج الأمر يحتلُ الكلام مكانة أجلّ، هذا وقد استعان بأدوات حجاجيّة امتلكت ضمانًا على القبول، ومن تلك الوسائل التي تسيّدت في تأثيرها:-

١- القسم

(ولعمري إنّ الناس إلى الكلام لأسرع...).

وهي من تلك الوسائل الحجاجيّة التي تضفي لدى السامع تأكيدًا لا ارتباك فيه، تتلبس لبوس الصدق؛ فهي بذلك تحتلُ قوة في قياس قوة الإقناع.

٢- حجة الوصل السببيّ

وهي تلك الحجة التي تأتي بأداة من أدوات التعليل، وتقوم بالربط بين الحجة والنتيجة، والحجة الأخرى... ودواليك، ومن تلك الأدوات،الرابط التعليليّ (لأن) الذي جاء في في قوله:-

"ولعمري إنّ الناس إلى الكلام لأسرع، لأن في أصل التركيب إنّ الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة على ترك العمل والسكوت عن جميع القول...".فتجد أنّ الحجة هنا،هي أن الكلام هو المحكيّ الرائج، ثمّ يأتي بدرجة أعلى لحجته بالاستعانة بالتعليل، في أنّ مقومات الحياة تتطلب القول فهي بذلك الأنجع لتلبية متطلبات المرء.

[67]المصدر السابق،ج1،ص147.
[68]الجاحظ، البيان والتبيين ،ج1،ص161.
[69]المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٣- الرابط الحجاجيّ (بل)

إنّ الروابط أحد المؤشرات الحجاجيّة، التي تضفي على الحجج فاعليّة إقناعيّة رحيبة، ومن تلك الروابط، (بل)، التي تجلّت في قوله:" وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل قد علمنا أن عامة الكلام أفضل من عامة السكوت". إنّ وجود الرابط (بل) في الجملةله أثر انقلابي، لكونه رابطًاتعارضيًّا، إذ تكون النتيجة بعده مضادة للحجة التي قبله، ففي قوله السابق يرى الجاحظ بأنه وإن كان للصمت مناقب عظيمة، إلا أن الكلام وعموميته أفضل من عامة السكوت، والرابط (بل) أضفى على الحجة نتيجة حتمية، بتفضيل الكلام على الصمت.

ويزيدُ على ذلك، قوله:"بالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت"[70]. ثمّ يُجمل على أنّ مواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، ويُضيف حججًا متتالية تصدح بأنّ الكلام مزيّة، ولطول الصمت طُلح فهو يُفسد البيان...، وقيل أيضًا: طول الصمت حُبسة[71] وأجلبها للحصر؛ أي أن له ضرر على النطق وثقل في اللسان؛ مما يُذهب عنه البلاغة والفصاحة.

يبدو جليًا أنّ الجاحظ لا يُريد أن يجعل فهمه طائعًا ممكنًا، وإنّ كانت غايته استمالة المُتلقي والسيطرة على مداركه، فتجد الجاحظ يُقدم حُججًا تهتف بالصمت وحصانته، وحُججًا تمنح الكلام أُصُص النفعيّة، سيّما أنها تجعل من المُتلقي يشغل لبابة عقله؛ تبيانًا لغاية الجاحظ من التأرجح الذي يتخذه نهجًا مُستطابًالحجاجه، فلحِجاج النقيض ذرائع على المُتفحص تنقيبها وصولًا إلى قمِين مراده.

*** الخاتمة**

استشرفت هذه الدراسة في أطيافها على صفوة من النتاجات، التي نالت على جملة من الرؤى، أهمها:-

١- تجلّى استطراد الجاحظ في حجاجه من أجل تحقيق نتيجة تضاديّة في بعض حججه، إذ إنّ تناسل حجاجه هنا، وهناك في فرادة الموضوع، يجعله يتشعبُ بإيراده حِججا تتصارعُ في مآلها، ولعل سمة الاستطراد التي زاملت الجاحظ جعلت لتضاد طريقًا في حجاجه.

٢- حقّق التضاد الذي اتخذه الجاحظ في خطاباته الإقناعيّة صفة حجاجيّة، وكان لمواضع استحضاره غاية قصديّة، فهي طريقة ناجعة للتأثير وثني الأعناق؛ ففي النفي والإثبات يسلُب المتلقي إلى شدّ حبال الوصل والاستمالة لما يقول.

٣- تنكشفُ جدليّة الجاحظ في خطاباته تشبّثًا بعقيدة الاعتزال في تضاعيف أقواله ولا سيمّا النقليّة، تلك التي أخذت شأوًا رحيبًا في إدلاءاته الإقناعيّة.

٤- جعل الجاحظ لمقام المُتلقي (الباتوس) أهمية وحضورًا، وكان لقسم من تضادِ خطابه موقفًا حياديًّا لوعي المتلقي، بيد أن له بعدًا حواريًا تفاعليًا، في جعل المُتلقي بمنزلة العارف عند إيراد الحجج المُسلمةَ بها من مِخيَالهم الثقافيّ أو من مذهبهم الذي يؤمنون به، مما يُقرب المُتلقي من المخاطب، ويحقق له وقعًا معنويًا تأثيرًا.

٥- لم يتقيد الجاحظ في ترتيب حججه، فلم يقف فيهاعلى هيكل ثابت، وإنّما تدرج في وجهِها صعودًا ونزولًا؛ فكان من شأن ذلك أن يرفع من المعنى الحجاجيّ، مع مساهمته في توظيف الروابط الحجاجيّة، والمُدجّجة أو المدعّمة بأدوات

[70]الجاحظ، البيان والتبيين،ج1،ص147.

[71]المصدر السابق،ج1،ص147.

الحجاج بمختلف أنواعها،من حجة السلطة، وحجة الإتجاه، والحجة التعليليّة وغيرها.

٦- كما أثبتت الدراسة امتلاك الجاحظ المواضع، تلك التي عدّها (شيرون) وغيره من الباحثين أهم من امتلاك الحُجج؛ فعصب الحجج في المواضع؛وهي حسب -(شيرون)- مخازن الحجج ومستودعاتها، بها يعوّل على مرجعياته المعرفيّة، والوقائع العينيّة، المثمنّة اجتماعيًا، التي تختزنُ طاقة حجاجيّة؛كما أنّها تحتل ترتيبًا جَهوريًّا في السلم الحجاجيّ.

*** المراجع**

أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون،د.ط، دار الفكر، بيروت، 1979م.

أرسطوطاليس، الخطابة، تحقيق: عبدالرحمن بدوي،د.ط، دار القلم، بيروت،1979م.

الأمين،محمد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، 2000م، عالم الفكر، الكويت، م28، العدد3.

أبو البقاء الكفويّ،الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصريّ،د.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت،د.ت.

أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، 2006م.

بلانتان، كريستان، الحجاج، ترجمة: عبدالقادر المهيري، ط1،المركز الوطنيّ للترجمة، تونس،2008م.

الجاحظ، عمرو بن بحر،البيانوالتبيين،تحقيق: عبدالسلام هارون،ط7، مكتبة الخانجي،القاهرة،1998م.

الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، د.ط،مكتبة لبنان، بيروت، 1990م.

حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته،ط1،عالم الكتب الحديث،عمّان،2010م.

الزمخشريّ، أبو القاسم، أساس البلاغة،تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1،دار الكتب العلميّة بيروت،1998م.

سرحان، هيثم، الحجاج عند الجاحظ،2011م، االمجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة مجلس النشر العلميّ، جامعة الكويت،العدد 115.

سلمان علي محمد،كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذجًا)، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع عمّان،2010م.

شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم،د.ط، كلية الآداب، د.ت.

صابر الحباشة، التداولية والحجاج،د.ط،دمشق، 2008م.

صمود، حمادي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم،د.ط، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة، تونس،د.ت.

الطاهر واعزيز،أرسطوطوبيقا ضمن كتاب المناهج الفلسفيّة،ط1 المركز الثقافيّ العربيّ، ،المغرب،الدار البيضاء، 1990م.

طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،د.ط، المركز الثقافيّ العربيّ،الدار البيضاء، المغرب،1998م.

عبد الرحمن عيسوي،دراسات في علم النفس الاجتماعيّة،د.ط، دار النهضة العربيّة، بيروت،1974م.

عبدالله، صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة،ط1،دار الفارابي، بيروت، 2001م.

العمري، محمد، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول،ط2، دار أفريقيا الشرق،المغرب،2012م.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، قاموس المحيط، تحقيق: زكريا جابر أحمد،ط1،دار الحديث، القاهرة،،2008م.

مشبال، محمد، في بلاغة الحجاج (نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات)،ط1، دار كنوز المعرفة،عمّان، 2018م.

مليكة غبار أحمد امزيل،الحجاج في درس الفلسفة،د.ط،دار أفريقيا الشرق،المغرب،2006م.

ابن منظور، محمد بن مكرم،لسان العرب،ط3، دار صادر، بيروت،د.ت.

هنري، بليث، البلاغة والأسلوبيّة نحو نموذج سيميائيّ لتحليل النص، ترجمة: حمد العمري،ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1989م.

ابن وهب،إسحاق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب،و خديجة الحديثي،ط1،جامغة بغداد،بغداد، 1967م.